أستاذي مصطفى صادق الرافعي

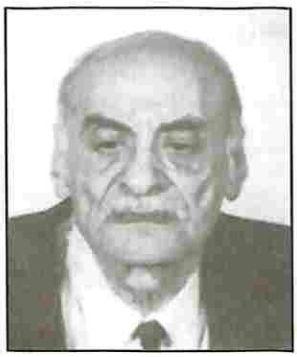

د . حسين مجيب المصري

من الأسئلة التي عهدنا طرحها في اتصال ودوام، هي أي شخصية كان لها الأثر في حياتك ؟

ونقصد بالحياة هنا .. الحياة الأدبية على الأخص . أقول .. والحق أقول .. إن حرفة الأدب أدركتني ولما أبلغ الرابعة عشرة، وأذكر أني قرأت واطلعت في هذه السن المبكرة على كتاب للرافعي تحت عنوان « رسائل الأحزان»، وكنت وأنا في ذلك الوقت .. أقرأ غيره من أمثال : جبران خليل جبران وكتبا أخرى قديمة وحديثة، وأحفظ من الأشعار العربية القديمة والحديثة جمهرة كبيرة .

غير أني تأثرت وأعجبت بالرافعي، وذلك لوجهين، أما أولهما : فعربيته المتينة الرصينة، والثاني : خياله الذي أعجبت به الإعجاب كله .

قرأت كتابه مرارا، وحفظت منه، وامتدت بي الأيام، فواظبت على قراءة معظم مؤلفاته، وحفظت الكثير والكثير من أشعاره . وبذلك تأثرت به، ووجدت نفسي أميل إلى متانة العبارة، وجزالتها ورصانتها والتفنن في التخيل والتمثيل، ولازمني الإعجاب بالرافعي، ومتابعة كتبه ومقالاته في الرسالة .. على الدوام .

ومعلوم أن الفتى في مثل سني لا بد أن يتأثر بما يقرأ، ويبقى هذا التأثر في عقله الباطن ووجدانه، ويلازمه في مقبل الأيام، ويشكل نوعية مواجهته للأدب .

وعلى الجملة .. يشكل شخصيته وحرفته الأدبية . فأنا مدين لأدب الرافعي في تشكيل نوعية اتجاهي في القراءة والكتابة منذ بدايته الأولى . وبقي أثر الرافعي ملازما، لا ينفك عني، في مراحل حياتي . ولقد اشتغلت بالقراءة والكتابة منذئذ إلى يومي الحاضر، وقد تجاوزت الثامنة والثمانين .

وإن كان ذلك لا يعني أنني لم أتأثر بغيره، ولكن بما أن تأثيره فيّ كان أسبق من تأثير سواه من الأدباء والمبدعين . أقول إني أرد النتيجة إلى مقدمتها الأولى، وأبين كيف أن أدب الرافعي أثر فيّ، وقد زودني بذخر لغوي وأدبي وخيالي ما زلت منه على ذكر .

ومرت الأيام وقرأت لمعاصري الرافعي من أمثال : طه حسين والعقاد وأحمد أمين والزيات وزكي مبارك، ولكني وجدت نفسي أتلو تلو الرافعي، وأضرب على قالبه فيما جرى به قلمه من نثر، وفاضت به قريحته من شعر، دون وعي مني، لأنه شكل شخصيتي الأدبية، وأرسى منها أساسا انبنى وقام عليه من بعد .. صرح شارك غيره في إقامته .

إنني في أول أمري شغلت بكتب الرافعي عن كتب من سواه ممن ذكرناهم سلفا، ولذلك انجذبت إليه انجذابا نفسيا، ولقد لاحظت أن لدى الرافعي نزعة فلسفية، فتحت عنوان كتابه « أوراق الورد» في فلسفة الجمال والحب نلحظ هذه النزعة الفكرية، تلك النزعة التي وجهت تفكيري هذه الوجهة الناقدة الفاحصة المقارنة . ولم أجد غيره من الكتاب من كانت له هذه الوجهة . لقد كنت أحفظ عن ظهر قلب جملا وعبارات وأشعارا للرافعي، تتضمن نزعة فلسفية، فتأثرت بها في ريّق شبابي، وكانت ملمحا من ملامح شخصيتي الأدبية من بعد.

إن المتعلم أو المريد لا ينسى معلمه أو شيخه على حال من الأحوال، ولله در من قال : « إن التعلم في الصغر كالنقش في الحجر » . وبعد أن اشتغلت بالتدريس في الجامعات خمسة وخمسين عاما .. كنت دائما أذكر تلاميذي بهذه الحقيقة . وشاء الله أن أجد من تلاميذي من تركت في نفوسهم أثرا أطيب من ريح المسك، فكانوا يذكرونني بالخير على الدوام، وأسوق لذلك مثلا : أن أحدهم، وقد أحيل إلى المعاش، بعد أن شغل منصبا كبيرا في مصر، يطرق بابي، دون إخبار منه بذلك، ويقول إنه تلميذي، وإني درست له منذ خمسين عاما، وعانقني في شوق ومحبة، وعبر لي عن حبه وتوقيره الدائم لشخصي .

كما كنت مرة ألقي بحثا عن محمد إقبال، وبعد أن فرغت، وجدت من جاء يعانقني، وقال لي: إنه فلان الذي يدرس العربية في مدينة ساون باولو بالبرازيل، وإنه يذكرني بالحسنى، حيث علمته في مصر، وإني كنت على الدوام حاضرا في فكره .

وهكذا مثلما أنا معترف بفضل الرافعي عليّ . يعاملني تلاميذي ومريدي بنفس الحب والمودة والعرفان .

وهكذا أقيم بالدليل الحي الملموس الواقعي .. على حب التلميذ لمعلمه الأول . وهذا المعلم قد لا يكون مع تلميذه في مجلس الدرس، بل قد يكون بكتبه، وهذا ما يطابق صلتي بالرافعي !! .